التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم - عليه السلام - والملك «نمروذ»(البقرة: ٢٥٨)

د. مريم نافل الدويلة
مدرس في قسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

ملخص البحث:

يتحدث هذا البحث عن جانب من جوانب الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وهو بعنوان: «التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم - عليه السلام - والملك «نمروذ»(البقرة: ٢٥٨).

وقد تناولت في تمهيده تعريف التناسب وأهميته، ثم ختمت التمهيد بخلاصة قصة إبراهيم - عليه السلام - والملك «نمروذ».

ثم جاء المبحث الأول: وفيه تناولت التناسب القرآني في النظم الموضوعي في آية قصة إبراهيم - عليه السلام - والملك «نمروذ»(البقرة: ٢٥٨)، على النحو التالي:

المطلب الأول: مناسبة الآية لمحور السورة.

المطلب الثاني: مناسبة الآية لما قبلها.

المطلب الثالث: مناسبة الآية لما بعدها.

وفي المبحث الثاني: تناولت التناسب القرآني في نظم آية قصة إبراهيم - عليه السلام- والملك «نمروذ»(البقرة: ٢٥٨).

حيث تتبعت ألفاظ الآية لعرض دقة أحداث القصة وكانت على النحو التالي:

المطلب الأول: المحاجة والمخاصمة في ألوهية الله تعالى وربوبيته، قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

المطلب الثاني: القدرة على التصرف في الوجود لله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

المطلب الثالث: الانقطاع والعجز عن المحاجة، قال تعالى:﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم كانت الخاتمة، وفيها أوردت أهم النتائج والتوصيات. والله أسأل أن يجعله خالصا لوجه. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(*) تم تسليم البحث في أكتوبر ٢٠١٧م، وأجيز للنشر في يناير ٢٠١٨م.

خطة البحث:

جاء هذا البحث محتويًا على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، والهدف منه، والمنهج الذي اعتمدته في كتابته.

التمهيد: فقد تناولت فيه:

– تعريف التناسب القرآني لغة واصطلاحًا.

– أهمية التناسب القرآني.

– خلاصة قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك.

المبحث الأول: التناسب القرآني في النظم الموضوعي لقصة إبراهيم – عليه السلام – والملك الطاغية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مناسبة الآية لمحور السورة.

المطلب الثاني: مناسبة الآية لما قبلها.

المطلب الثالث: مناسبة الآية لما بعدها.

المبحث الثاني: التناسب القرآني في نظم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المحاجة والمخاصمة في ألوهية الله تعالى وربوبيته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

المطلب الثاني: القدرة على التصرف في الوجود لله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

المطلب الثالث: الانقطاع والعجز عن المحاجة، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها.

الفهارس، وتشتمل على: المراجع والمصادر المعتمدة في البحث.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. . وبعد:

فإن المتدبر للقرآن الكريم؛ يجده سلك أسلوبًا فريدًا في عرضه للقضايا، فهو ينوع في العرض بالترغيب مرة، والترهيب أخرى، وبالموعظة حينًا، والقصة حينًا آخر، ويذكر طرفًا من الموضوع مرة، ثم ينتقل إلى غيره، ثم يعود إلى إتمامه مرة أخرى بأسلوب معجز في نظم ألفاظه وترابط آياته «بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني »[(١)].

وهو ما يسمى بـ(علم المناسبة عند علماء التفسير)، ومن هنا قوي عزمي على التأمل في كتاب الله، وبالتحديد في قصص القرآن؛ حيث لا تخطئ العين روعة هذا القصص وجماله من خلال طريقة العرض وبراعة التصوير، يستوي في ذلك جميع قصص القرآن الكريم، وقد دفعني هذا التأمل إلى اختيار قصة من قصص القرآن، وهي قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك في سورة «البقرة»، لإظهار جمال نظم ألفاظ القصة وحسن ترتيبها في السورة، فمن «تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها؛ علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته»[(٢)].

لذا كان لهذا البحث أهميته وسميته: «التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك «نمروذ»(البقرة: ٢٥٨)».

(١) «البرهان في علوم القرآن»، لبدر الدين الزركشي، (ص ٣٧).

(٢) «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي، (١٢٨/٧).

الدراسات السابقة في الموضوع:

بعد البحث والسؤال لم يظهر لي أن أحدًا قد كتب في هذا الموضوع بالصورة التي كتبت فيها، إلا أن هناك دراسة قيمة تعرضت لبعض جزئيات البحث وهو كتاب «النبأ العظيم»، للدكتور: محمد عبد الله دراز، تحدث فيه عن المناسبة في سورة «البقرة».

كما أن هناك دراسات اهتمت بدارسة منهج العلماء في علم المناسبة، ومن هذه الدراسات:

١- التناسب في تفسير الرازي، دراسة في أسرار الاقتران (رسالة دكتوراه) لمنال المسعودي.

٢- التناسب القرآني عند البقاعي، لمشهور موسى مشهور (رسالة ماجستير).

وهناك دراسة باسم:

٣- التناسب في سورة البقرة، لطارق مصطفى حميدة (رسالة ماجستير)، تناول في الفصل الثالث أوجه التناسب الداخلية في سورة البقرة ولكن لم يتوقف عند محل دراستنا بصورة تفصيلية.

منهجي في البحث:

يرتكز البحث على المنهج التطبيقي التحليلي للكشف عن جماليات التناسب في نظم الآية وحسن ترتيبها في السورة؛ هذا وسأسير في البحث على الخطوات التالية:

١- الرجوع إلى ما تيسر لي الرجوع إليه من أمهات المصادر في علم المناسبة، سواء في ذلك كتب التفسير، أو علوم القرآن وفروعه من مصنفات الإعجاز القرآني، أو تلك التي تخصصت في موضوع المناسبة.

٢- القيام بدارسة آية قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك «نمروذ» دراسة تدبرية للوقوف على فصاحة وترابط ألفاظ الآية ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من آيات.

٣- قمت بالتعريف اللغوي، ثم اتبعته بالتعريف الاصطلاحي لبعض المصطلحات التي وردت في البحث.

٤- دمج المصطلح القرآني مع السياق الذي وردت فيه، وبيان تناسق المصطلح مع الآية التي ورد فيها، ومع السياق الذي وردت فيه الآية، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية في المعنى المراد.

٥- الوقفة المتأنية الفاحصة أمام ألفاظ الآيات، واستخلاص دلالتها، ولطائفها، واستنباط دروسها، وعبرها، وحكمها، وتسجل حقائقها.

٦- الموازنة والترجيح بين أقوال العلماء.

٧- عزوت النصوص المنقولة إلى مظانها الأصلية.

٨- وأخيرًا، بينت اختياري ووجهة نظري كثمرة علمية وعملية لبحثي.

التمهيد:

وفيه:

أولا: تعريف التناسب لغة واصطلاحًا.

ثانيا: فائدة علم التناسب.

ثالثا: خلاصة قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك.

أولا: تعريف التناسب لغة واصطلاحًا:

التناسب لغة: من النسب، يقول ابن فارس: «النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، ومنه النَّسَبُ، سُمي لاتصاله وللاتصال به. والنسيب: الطريق المستقيم لاتصال بعضه ببعض»[١].

والمناسبة بمعنى «المشاكلة والمشابهة، يقال بين هذين الشيئين: مناسبة وتناسب؛ أي: مشابهة وتشابه»[٢]، «وفلان يناسب فلانًا؛ أي: يقرب منه ويشاكله، ومنه: النسيب، الذي هو: القريب، كالأخوين، وابن العم، ونحوه، وإن كانا متناسبين بمنى رابط بينهما، وهو القرابة»[٣].

تعريف التناسب اصطلاحًا:

يستعمل مصطلح التناسب والمناسبة في علم التفسير؛ لبيان الترابط بين آيات القرآن وسوره، يقول البقاعي: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة»[٤]، وقريب من هذا ما أورده الزركشي: «ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول»[٥].

(١) «معجم مقاييس اللغة»، لابن فارس، (٥ / ٤٢٤)، مادة: (نسب).
(٢) انظر: «لسان العرب»، لابن منظور، (٢/ ٢٥٣)، مادة: (نسب).
(٣) «البرهان في علوم القرآن»، لبدر الدين الزركشي ص: (٣٦).
(٤) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥).
(٥) «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي، ص(٣٦).

وبين التعريفين اللغوي والاصطلاحي «تناسب واضح؛ إذ لا تتم المشاكلة والمشابهة إلا بوجود أمر يربط بين الشيئين أو يقارب بينهما، ومحك ذلك كله: عدم التصنع والتكلف وقبوله لدى العقول الواعية، فهو أمر معقول، إذا عرض على العقول؛ تلقته بالقبول، وبالتالي فإن قبولها شرط قبولها»[١].

ثانيا: فائدة علم التناسب:

رأى علماء القرآن والتفسير بأن لعلم المناسبة أهمية كبيرة، وفوائده عظيمة، ومن فوائده:

١- «معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو»[٢].

يقول الزركشي: «وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التآلف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[٣].

٢- دفع توهم وجود التنافر في المعاني والتباعد في المقاصد في آيات وسور القرآن، ورد شبهات المستشرقين وغيرهم حول الترتيب والتناسق[٤].

يقول البقاعي: «وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:

أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

والأول أقرب تناولًا وأسهل ذوقًا، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز.

---

(١) «التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، دراسة بلاغية»، رسالة ماجستير، إعداد: مشهور موسى مشهور مشاهرة، (ص ٣٧)، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١ م. وانظر: «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي، (ص: ٣٦).

(٢) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/٦).

(٣) «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي، (ص: ٣٦).

(٤) انظر: «الأساس في التفسير»، لسعيد حوّى، (١/٢٧)، «مجلة البحوث والدراسات الإسلامية»، بحث بعنوان: (التناسب القرآني) لأمير طلال النعيمي، العدد ٣٢، (ص ٧٧).

ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأي أن الجمل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه... إلى أن يقول: فإذا استعان بالله، وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل، وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط، كما كان في الأوج من حسن المعنى... فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر منه طربًا، وشكر الله استغرابًا وعجبًا، وشاط لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانه...» إلخ[1].

٣- فهم لطائف القرآن، وفهم معاني جديدة من خلال ترتيبه ونظم آياته، يقول الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[2].

ويقول في «تفسير سورة البقرة»: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته»[3].

٤- «تبين سر التكرار في قصص القرآن، وأن كل قصة أعيدت في موطن فلمناسبتها ذلك الموطن، ولذلك ترى اختلافًا في ترتيب القصة ونظمها بحسب المناسبة، وإن كانت متحدة في أصل المعنى»[4].

٥- «يفيد في معرفة أسرار التشريع وحكم الأحكام وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة»[5].

٦- «يعين على فهم معنى الآيات وتحديد المراد منها، ومن ذلك: خلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ (الصافات: ١)، فقال قوم: هي الملائكة، وهذا قول

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ١٠- ١٢).

(٢) «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي، (١٠/ ١١٣).
وقد ذكر هذه المقولة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

(٣) المرجع السابق، (٧/ ١٣٩).

(٤) بحث بعنوان: (علم المناسبات في القرآن)، لمحمد الخضيري، منشور في «مجلة البيان»، العدد ١٤٦، ص٢٠.

(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الجمهور، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ وذلك لأنا لو بحثنا عن المناسبة بين أول السورة وخاتمتها لوجدناه ذكر في الخاتمة في معرض حديث الملائكة عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات: ١٦٥، ١٦٦)[١][٢].

ثالثا: خلاصة قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك:

ذكر الله تعالى في آية من سورة البقرة بعض الحوار الذي جرى بين إبراهيم – عليه السلام – وبين الملك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وقد توسع بعض المفسرين[٣] في تفصيل هذه القصة من حيث «من الملك الذي جادله إبراهيم – عليه السلام –؟ وما مظاهر ملكه؟ وما قصة ادعائه الألوهية؟ وما اسم مملكته وعاصمته؟ وكيف كانت نهايته؟

هذه الأسئلة لا جواب عنها في القرآن، ولا في حديث رسول الله ﷺ»[٤]، بل لها إجابات مفصلة في الروايات الإسرائيلية، فالإخباريون ورواة الإسرائيليات «يقولون: الملك اسمه نمروذ، وقيل: نمروذ، وكان ملكًا على بابل، وأن الله أهلكه بالبعوضة، دخلت من أنفه إلى دماغه، وكانت تطنُّ في دماغه وتزعجه، فيطلب ضربه بالنعال؛ ليذهب الألم... إلى غير ذلك من الإسرائيليات»[٥].

«ومثل هذا النوع من المبهمات لا يؤثر تعيينه في فهم المعنى، كما لا يؤثر عدم تعيينه فينقص المعنى، وإنما أثره في أمر خارج التفسير وهو التاريخ»[٦] فالعبرة بالمعاني والمقاصد

(١) مجلة البيان، بحث بعنوان: «علم المناسبات في القرآن»، لمحمد الخضيري، العدد ١٤٦، (ص ٢٠).
(٢) انظر: «فتح القدير»، للشوكاني، (٦/ ٣٧٣).
(٣) للتوسع في تفاصيل هذه القصة: انظر: «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٦٨– ٥٧٥)، «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، (٣/ ٢٨٢–٢٨٥)، «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير(١/ ٢٥٨).
(٤) «القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث»، د. صلاح الخالدي، (١/ ٣٣٧)، دار القلم، دمشق، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٦) بحوث محكمة في علوم القرآن وأصول التفسير، تأليف: د. مساعد بن سليمان الطيار، ص: ٢٣٥، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١٥م.

دون الأشخاص»[1].

والذي يعتمد أن «نقول عن ذلك الملك: إنه كان ملكًا كافرًا، ادَّعى الألوهية، وكان الناس يعبدونه من دون الله، فتوجه إبراهيم – عليه السلام – إليه، وحاجَّه وجادله، وناقشه، وأقام الحجة عليه، ثم أفحمه وغلبه، فكان الملك أمام إبراهيم مغلوبًا مهزومًا مبهوتًا»[2].

المبحث الأول

التناسب القرآني في النظم الموضوعي

لقصة إبراهيم – عليه السلام – والملك الطاغية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **(البقرة: ٢٥٨).**

وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مناسبة الآية لمحور السورة.

المطلب الثاني: مناسبة الآية لما قبلها.

المطلب الثالث: مناسبة الآية لما بعدها.

المطلب الأول

مناسبة الآية لمحور السورة

معلوم أن سورة البقرة أطول سورة في القرآن، ومع هذا نجد أن محور السورة واضح تمام الوضوح وإن اختلفت عبارات المفسرين في الظاهر:

يقول أبو جعفر بن الزبير الغرناطي: إن السورة بأسرها: «بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه»[3].

ويقول البقاعي: «مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث التي أعربت

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة البقرة (٣/ ٢٩٣).
(٢) القصص القرآني، لصلاح الخالدي، (١/ ٣٣٧).
(٣) «البرهان في تناسب سور القرآن»، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، ص: ٨٨.

عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب»[١].

«ومما سبق وباستعراض أقوال العلماء[٢] وتدبر السورة وموضوعاتها نستطيع أن نقول: إن محور السورة يدور حول «منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه» وهذا المحور يتناسب مع موضوعات[٣] السورة ومع ملابسات نزولها؛ فسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض، فناسب أن يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي لهم»[٤].

يقول ابن عاشور عند قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾(البقرة: ٢٥٨): «والمقصود من هذا تمثيل حال المشركين في مجادلتهم النبي ﷺ في البعث بحال الذي حاج إبراهيم في ربه»[٥].

ثم يقول: «وهذا استدلال مسوق لإثبات الواحدانية لله تعالى وإبطال إلاهية غيره لانفراده بالإحياء والإماته»[٦].

ولهذا نجد قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك تكشف عدة قضايا أساسية لها تعلق قوي بمحور السورة، فإن من وجوه العبرة في القصة ما يلي:

أ– الحرص على نقاء العقيدة، وعدم تقديس أي معبود من دون الله تعالى، فقد بينت «جرأة الطاغية الذي جادل إبراهيم – عليه السلام – في ربوبية الله وتوحيده، وقد وقع منه ذلك؛ لأن الله أتاه الملك فطغى، فبين له إبراهيم – عليه السلام – ما يسوغ الإيمان بالواحد الأحد لمن أراد الهداية»[٧].

ب– معاندة الأنبياء، والاستهزاء بهم، وعدم التسليم لهم، فقد ذكرت القصة تلكؤ الملك في التسليم لحجة إبراهيم – عليه السلام – في إثبات التوحيد الخالص لله تعالى «حين قال له إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ يعني بذلك: ربي الذي بيده الحياة والموت يحيي من

(١) «نظم الدرر»، لبرهان الدين البقاعي، (١/ ٩٥).
(٢) انظر المزيد: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (١/ ٢٠٣)، «في ظلال القرآن» لسيد قطب (١/ ٢٨).
(٣) من أهم الموضوعات التي تناولتها سورة البقرة الرسل والألوهية، انظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة (١/ ٨٧).
(٤) التفسير الموضوعي لسورة القرآن الكريم، لنخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن (١/ ٢٨).
(٥) «التحرير التنوير»، لابن عاشور (٣/ ٣١).
(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٧) المختصر في التفسير، إشراف مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص: ٤٣.

يشاء، ويميت من أراد بعد الإحياء، قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميتُ، أستحيي من أُريد قتله، فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياءً له[1]، «قال إبراهيم له: فإن الله الذي هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فأت بها – إن كنت صادقًا أنك إلهٌ –، من مغربها . قال الله تعالى ذكره: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾؛ يعني: انقطع، وبطلت حجته»[2]، وهذا حال الذين انحرفت فطرتهم، وخرجوا من ظلمات الهداية إلى نور الغواية والجدال بغير حق.

ج– إثبات قدرة الله تعالى في الإحياء والممات والتصرف في الوجود:

«فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ مرتبطة بالحجة التي قبلها: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فالدليل واحد في الموضعين[3]، وهو قدرة الله تعالى في الإحياء والممات والتصرف في الوجود[4].

ولكل من هذه الأمور تعلق قوي بمحور السورة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولا: أمر التوحيد والإيمان، جاء في تضاعيف السورة ما يسوغ الإيمان بالواحد الأحد، كما أنه اختتمت به السورة.

ثانيا: أمر الإيمان بالبعث بعد الموت جاء في السورة عدة شواهد عملية على البعث بعد الموت، منها قصة:

١– إحياء بني إسرائيل بعد صعقهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥، ٥٦).

٢– إحياء القتيل في قصة البقرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٢، ٧٣).

٣– وإحياء الذين خرجوا من ديارهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ

(١) سوف نأتي بتفصيل ذلك في المبحث الثاني.
(٢) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧٠).
(٣) انظر: «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٤) سوف نأتي بتفصيل ذلك في المبحث الثاني.

أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

٤– قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها؛ قال تعالى:﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ (البقرة:٢٥٩).

٥– قصة إبراهيم مع إحياء الطير؛ قال تعالى:﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قال ابن تيمية: «فهذه خمس قصص في إحياء الآدميين، وقصة في إحياء البهائم، وقصة في إبقاء الطعام والشراب، وقصة في إحياء الطير»[1]، وهذا مرتبط بالإيمان بالغيب الذي جاء في أول السورة كوصف للمتقين في السورة.

ثالثا: أمر معاندة الأنبياء والاستهزاء بهم وعدم التسليم لهم مباشرة جاء في تضاعيف السورة شواهد عملية تبين ذلك، منها:

جدال بني إسرائيل لموسى – عليه السلام – في أمر البقرة أكثر من مرة، واستهزءوا به، وكان لازم كلامهم نسبته إلى الجهل؛ قال تعالى:﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧).

– وجدال الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى لنبيهم؛ قال تعالى:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

وبهذا يتضح لنا أن موضوع هذه القصة يتناسب مع محور السورة.

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، (٤ / ٦٠).

المطلب الثاني
مناسبة الآية لما قبلها

المتأمل في قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك يلمس انسجامًا تاما بين القصة وما سبقها من آيات، فهي تأتي وترد في مقام يلائم تماما الجو العام للسورة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: مناسبة الآية لما قبلها مباشرة:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ...﴾ مناسبة الآية لما قبلها أنه: «لما ذكر الله تعالى أنه يُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، وأن الطاغوت يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات، ساق ثلاثة شواهد على ذلك، أولها وأجمعها قصة إبراهيم – عليه السلام – مع الملك؛ لأنها اشتملت على ضلال الكافر، وهدى المؤمن، فكان هذا في قوة المثال»[1].

يقول أبو السعود عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: «استشهاد على ما ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وتقرير له على طريقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٥)، كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين، وتقرير لها، وإنما بدئ بهذه الرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال، وهو اجتراؤه على المحاجة في الله عز وجل، وما أتى بها في أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته؛ ولأن فيما بعده تعددًا وتفصيلًا يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير في تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضًا بواسطة إبراهيم – عليه السلام –، فإن ما يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى»[2].

ويقول الآلوسي عند هذه الآية: «بيان لتسديد المؤمنين؛ إذ كان وليهم وخذلان غيرهم؛ ولذا لم يعطف، واهتم ببيانه؛ لأن منكري ولايته تعالى للمؤمنين كثيرون»[3].

ويبين ابن عاشور العلاقة بين ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآية

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣١).
(٢) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١).
(٣) «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٥).

التي قبلها، فيقول: «وقوله:﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييل هو حوصلة الحجة على قوله:﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ (البقرة: ٢٥٧)»[١].

ثانيا: مناسبة الآية لما قبلها من قصص:

ذكر الله تعالى عدة قصص قبل قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك، هي «من عظيم آياته، وبدائع قدرته»[٢]، منها:

قال تعالى:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾(البقرة: ٢٤٣).

يخبر الله تعالى «عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت[٣]، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلق من بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله تعالى، لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر»[٤].

ولو دققنا في سياق الآية السابقة لوجدنا رابطًا قويًّا يربط بينها، وبين قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك، الطاعنة في السياق، هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الإحياء والإماتة اللتين زعم الملك الطاغية أنه يقدر عليهما.

يقول البقاعي: «ولما أخبر سبحانه وتعالى بمحاجته بين ما هي تقرير الآية «﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ دلالة البعث ليوم لا ريب فيه ولا خلة ولا شفاعة، فقال:﴿إِذۡ﴾؛ أي: حاجة حين ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ﴾»[٥].

نتبين مما سبق «أن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء»[٦]، فإذا كان الأمر كذلك «فإن الحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها الحياة، وكذلك المال لا يذهب بالإنفاق، إنما هو قرض حسن لله، مضمون عنده سبحانه، فقال تعالى مبينًا ذلك:

---

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٤).
(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٢٥٨).
(٣) إما لوباء حل في موطنهم، أو لعدو هاجمهم. انظر: تفصيل ذلك في الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٣/ ٢٣٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١/ ٢٣٠). وانظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٢٦٤).
(٥) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥٠٣).
(٦) «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، (١/ ٢٦٤).

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا..﴾ (البقرة: ٢٤٤ – ٢٤٥)».

ثم أردف الله تعالى بقصة من قصص بني إسرائيل، جرت أحداثها من بعد وفاة موسى – عليه السلام –، حيث يخبر الله بأمر جدالهم مع أحد أنبيائهم وعدم انصياعهم له مباشرة إلا قليلًا منهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦ – ٢٥١).

نتبين من هذه القصة وقصة إبراهيم – عليه السلام – والملك الكافر: أهمية الانصياع إلى الحق، فإن «الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه؛ ازداد وضوحًا وتميزًا، وحصل به اليقين التام، كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب»[(١)]؛ لذا فإن «ظهور الحق ظهورًا بينًا لا سبيل معهم إلى سوء فهم، أو نشوء جدال ومراء حوله، يكون التسليم والإيمان الفوري هو النتيجة الطبيعية لذلك»[(٢)]، خلافًا لقصة الملك الكافر، فإن «قيام مانع الكبر من الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر؛ ليظل على كفره، كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)»[(٣)].

ثم يبين الله تعالى المقصود من هذه القصص بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٢). أي: هذه الآيات التي أنبأت بها، وأُنبئت آيات الله؛ أي: علاماته التي تدل على توحيده وتثبيت رسالات أنبيائه[(٤)].

هذا وعند التأمل في الآيات التي جاءت بعد هاتين القصتين نجد أنها مناسبة لما قبلها وما بعدها من قصص، يقول ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، لعبد الرحمن السعدي، (ص ١٠٩).
(٢) «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، (١/ ٢٩٨).
(٣) «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، (١/ ٢٩٨).
(٤) «معاني القرآن وإعرابه»، للزجاج، (١/ ٣٣٣).

مِّنْهُم ...﴾ (البقرة، الآية: ٢٥٣): «موقع هذه الآية موقع الفذلكة[١] لما قبلها والمقدمة لما بعدها، فأما الأول فإن الله تعالى لما أنبأ باختبار الرسل إبراهيم وموسى وعيسى وما عرض لهم مع أقوامهم، وختم ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، جمع ذلك كله في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾، لفتًا إلى العبر التي في خلال ذلك»[٢]، ثم يضيف فيقول: «لما أفيض القول في القتال وفي الحث على الجهاد، والاعتبار بقتال الأمم الماضية عقب ذلك بأنه لو شاء الله ما اختلف الناس في أمر الذين من بعد ما جاءتهم البينات، ولكنهم أساءوا الفهم، فجحدوا البينات، فأفضى بهم سوء فهمهم وعنادهم إلى اشتطاط الخلاف بينهم، حتى أفضى إلى الاقتتال»[٣].

وقصة إبراهيم – عليه السلام – والملك الكافر نموذجًا لذلك.

هذا؛ ولما قدم الأمر بالقتال، وهو بذل النفس في سبيل الله، أعقبه بالأمر بالإنفاق، وهو بذل المال، فقال الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

ولما ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن الكافرين هم الظالمون «استأنف بذكر تمجيد الله تعالى وذكر صفاته إبطالًا لكفر الكافرين وقطعًا لرجائهم»[٤]، فقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ...﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وجعلت هذه الآية ابتداءً لآيات تقرير الوحدانية والبعث، وأودعت هذه الآية العظيمة هنا؛ لأنها كالبرزخ بين الأغراض السابقة واللاحقة[٥].

«وإذا كان الأمر بهذا الشكل من الوضوح؛ فالعقول السليمة تؤمن به من غير حاجة إلى إكراه لوضوح البراهين»[٦]، فقال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) الفذلكة: مجمل ما فصل وخلاصته. المعجم الوسيط، (٢/٦٧٨).
(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/٥).
(٣) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/٥).
(٤) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/١٧).
(٥) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/١٧).
(٦) «مباحث في التفسير الموضوعي»، لمصطفى مسلم، (ص ٧١)، وانظر: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/٢٥).

(البقرة: ٢٥٦)، «ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك»[١]، فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

نتبين مما سبق انسجام الآيات بعضها مع بعض، على الرغم من وجود الفاصل الزمني بينهما[٢].

وما أجمل قول الشيخ محمد عبد الله دراز بهذا الصدد: «إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قُدِّرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرَّق أنقاضًا فلم تلبث كل لبنة من أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة»[٣].

المطلب الثالث
مناسبة الآية لما بعدها

أولًا: مناسبة الآية لما بعدها مباشرة:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ...﴾ مناسبة هذه الآية لما بعدها أنه: «لما قرر ثبوت انفراد الله بالإلهية، وذلك أصل الإسلام، أعقب بإثبات البعث الذي إنكاره أصل أهل الشرك[٤]»، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩)، فمن بلاغة القرآن تنويع الأدلة والبراهين على الأمور العظيمة، فهذه الآية وما قبلها وما بعدها، كلها في سياق قدرة الله تعالى عز وجل على إحياء الموتى»[٥].

يقول البقاعي: «ولما كان الإحياء والإماتة من أظهر آيات الربانية وأخصها بها، أظهر الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، لعبد الرحمن السعدي (١/ ١١١).
(٢) سورة «البقرة» مدنية، نزلت في مدد شتى، وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢٨١)، فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى. «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٥٢).
(٣) «النبأ العظيم»، لمحمد عبد الله دراز، (ص ١٥٤، ١٥٥).
(٤) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٤).
(٥) «القرآن العظيم»، لابن عثيمين، (٣/ ٢٨٢).

سبحانه وتعالى العبرة عليها تارة بإبهات المدعي للمشاركة، وتارة بإشهاد المستبعد في نفسه وغيره بفعل ربه»[١]، ثم يقول مبينًا دقة النظم: «معبرًا في كل منها بما اقتضاه حاله وأشعر به سؤاله، فعبر في الكافر بإلى إشارة إلى أنه في محل البعد عن المخاطب ﷺ، وفي المتعجب بإسقاطها إسقاطًا لذلك البعد»[٢].

ويقول أبو السعود: «استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له، معطوف على الموصول السابق، وإيثار (أو) الفارقة عل الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر»[٣]، ثم يقول: «جيء بها – الكاف – للتنبيه على تعدد الشواهد، وعدم انحصارها فيما ذكر»[٤].

ثانيًا: مناسبة الآية لما بعدها من قصص:

قال تعالى:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠).

نجد مناسبة قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك لما بعدها من قصص «في غاية الظهور؛ إذ كلاهما أتى بها دلالة على البعث المنسوب إلى الله تعالى في قول إبراهيم لنمروذ:﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، لكن المار على القرية أراه الله ذلك في نفسه وفي حماره، وإبراهيم – عليه السلام – أراه ذلك في غيره، وقُدِّمت آية المار على آية إبراهيم – عليه السلام –، وإن كان إبراهيم – عليه السلام – مقدَّمًا في الزمان على المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت، وإن كان تعجب اعتبار، فأشبه الإنكار، وإن لم يكن إنكارًا، فكان أقرب إلى قصة النمروذ وإبراهيم

(١) نظم الدرر، للبقاعي (١/ ٥٠٥).
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٢٥٢).
(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

– عليه السلام –، وأما إن كان المار كافرًا، فظهرت المناسبة أقوى ظهور، وأما قصة لُبَّة – أي: شدة سؤاله – إبراهيم – عليه السلام –، فهي سؤال لإرائه كيفية الإحياء؛ ليشاهد عيانًا ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به نمروذ»[1].

وفي تناسب هذه القصص يقول البقاعي: «لما كان الإيمان بالبعث، بل الإيقان من المقاصد العظمى في هذه السورة، وانتهى إلى هذا السياق هو لتثبيت دعائم القدرة على الإحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق، فبين أولًا بالرد على الكافر ما يوجب الإيمان وبإشهاد المتعجب ما ختم الإيقان علا عن ذلك البيان في قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه إلى ما يثبت الطمأنينة... فكان كأنه قيل: يا منكري البعث ومظهري العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التي أكثرها كاذب، اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم – عليه السلام – التي لقاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرق وإعادة الروح بإخبار من لا يتهم بشهادة القرآن الذي أعجزكم عن الإتيان بمثل شيء منه، فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين، بل عين اليقين»[2].

هذا، ثم جاءت آيات الإنفاق بعدما ذكر قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك، وقصة المار على قرية، وقصة إبراهيم عليه السلام، مع إحياء الطير، وكانت من أدل الدلائل على البعث؛ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ﴾ (البقرة: ٢٦١).

«ذكر ما ينتفع به يوم البعث، وما يجد جدواه هناك، وهو الإنفاق في سبيله، كما أعقب الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، وكما أعقب قتل داود – عليه السلام – جالوت، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾، فكذلك أعقب هنا ذكر الإحياء والإماتة بذكر النفقة في سبيله؛ لأن ثمرة النفقة في سبيله إنما تظهر حقيقة يوم البعث، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ (آل عمران: ٣٠)، واستدعاء النفقة في سبيل الله مُذكر

(١) «البحر المحيط»، لأبي حيان الأندلسي، (٢/ ٣٠٤).
(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، لبرهان الدين البقاعي، (١/ ٥٠٨).

بالبعث؛ لأنه لو لم يعتقد وجوده، لما كان يُنفَق في سبيل الله»[١].

وقد أشار بعض الباحثين إلى خيط دقيق يربط أجزاء هذا المقطع مع بعضه البعض، فقال: «ولو دققنا في سياق الآيات لوجدنا خيطًا رفيعًا يربط بينهما جميعًا، فالسياق هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الإحياء والإماتة اللتين زعم نمروذ أنه يقدر عليهما، وأراد أن يلبس على الناس في ذلك.

الصورة الأولى: الإحياء والإماتة في الإنسان: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

والصورة الثانية: الإحياء والإماتة في الحيوان: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

والصورة الثالثة: الإحياء والإماتة في الطير: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

والصورة الرابعة: الإحياء والإماتة في النبات: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

والصورة الخامسة: الإحياء والإماتة في الأعمال (الأعراض): ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦١ – ٢٦٤).

إذن؛ الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية، فهو الحي القيوم، المحيي المميت، وقد عرض لنا هذه الصور الخمس للحياة والموت لهذه المخلوقات المادية والمعنوية، وهي المناسبة التي ربطت بين الآيات جميعها[٢].

وما هذا المقطع من سورة البقرة إلا نموذج ما عليه القرآن من مناسبة «الآيات بعضها لبعض من أول المصحف إلى آخره حاصلة تامة على أحسن وجه وأكمل منوال ولكن الناس

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، (٢/٣٠٦).

(٢) بحث: «المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم»، للدكتورين: عبد الله الخطيب، ومصطفى مسلم، (ص ١١، ١٢)، منشور في: «مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية»، مجلد ٢، عدد ٢، ربيع الثاني، ١٤٢٦ هـ، يونيو ٢٠٠٥ م.

تختلف أفهامهم في وجه المناسبة، فبعضهم يظهر له معنى بعيد ضعيف وبعضهم يظهر له معنى حسن قوي، فالمناسبة بين الآيات حاصلة، وحسن ذلك وضعفه راجع إلى حسن الأفهام، والله أعلم»[1].

المبحث الثاني

التناسب في نظم الآية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المحاجة والمخاصمة في ألوهية الله تعالى وربوبيته؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

المطلب الثاني: القدرة على التصرف في الوجود لله تعالى وحده؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

المطلب الثالث: الانقطاع والعجز عن المحاجة؛ قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

المطلب الأول

المحاجة والمخاصمة في ألوهية الله تعالى وربوبيته

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾

«المقصود من الآية تمثيل حال المشركين في مجادلتهم النبي ﷺ في البعث بحال الذي حاج إبراهيم في ربه؛ ويدل لذلك ما يرد من التخيير في التشبيه في قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ (البقرة: ٢٥٩)»[2]، وهذا التمثيل يتضمن المغزى الحقيقي الذي سيقت من أجله القصة، فالقصة منذ الكلمة الأولى مسوقة «لإثبات الوحدانية لله تعالى وإبطال ألوهية غيره لانفراده

(١) الزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة المكي، (٦/ ٢٩٩).
(٢) «التحرير والتنوير لابن عاشور»، (٣/ ٣١).

بالإحياء والإماتة، وانفراده بخلق العوالم المشهودة للناس»[١] وبيان ذلك ما يلي:

١– قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: «همزة الاستفهام لإنكار النفي، وتقرير المنفي؛ أي: ألم تنظر، أو ألم ينته علمك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لإضلال الناس، وإخراجهم من النور إلى الظلمات؛ أي: قد تحققت الرؤية، وتقررت بناءً على أن أمره من الظهور، بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب»[٢]، والراجح – والله أعلم– أن «الرؤية هنا بمعنى العلم – أي علميه قلبية–؛ فإن رأي تكون بمعنى علم وبمعنى أبصر، أو تكون دائما بمعنى أبصر، ولكن الإبصار قد يكون بالبصر، وقد يكون بالبصيرة فيكون علمًا، وقد تتضمن الرؤية معنى النظر وهو نظر البصيرة؛ ولأنها تضمنت معنى النظر قد تعدت بإلى»[٣]، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾، وقد ذكر الراغب الأصبهاني في مفرداته[٤]: أن رأى إذا تضمنت معنى النظر ولكن كان النظر بالبصيرة تتعدى بإلى».

هذا ونجد أن من دلالات هذا المعنى أن المراد هو الوصول بمادة العلم إلى منتهاها، ليس تعلم فقط، وإنما ألم ينته علمك إلى، كأنها نوع من الأشياء الموغلة في الغرابة عندما يأتي الحديث عنها، كأن شيئًا مهمًا فاتك أن تعلمه كيف لم يصل علمك إلى»[٥] هذا الطاغوت.

وقد عبر بهذا اللفظ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ دون غيره؛ لكونه يحمل معنى التعجب الذي لا يستثير حاسة الرؤية في ذاتها ولكن لجعل دائرة العجب الذي يحتوي عليه مضمون الخبر؛ كأنه شيء يستحق أن يعرض للرؤية»[٦].

هذا ويمكن «أن يكون المخاطب علم بهذه القصة قبل نزول هذه الآية، فيكون التقرير ظاهرًا؛ أي: قد رأيت حال هؤلاء، ويمكن أنه لم يعلم بها إلا من هذه الآية، فيكون معنى هذا الكلام التنبيه والتعجب من حال هؤلاء، والمخاطب رسول الله ﷺ، أو كل سامع، ويجوز أن يكون المراد بهذا الاستفهام التعجب من حال هؤلاء، وأكثر ما يرد كذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ

(١) «التحرير والتنوير لابن عاشور»، (٣/ ٣١).
(٢) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١)، وانظر: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، للآلوسي، (٣/ ١٥).
(٣) زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٢/ ٨٥٧).
(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، ص ٥٥٠، ٥٥١.
(٥) تأملات في جماليات النص القرآني، لأحمد درويش، ص ١٢.
(٦) انظر: المرجع السابق، ص ١٢ – ١٣.

قَوْمًا﴾ (المجادلة: ١٤)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ (الفرقان، من الآية: ٤٥)»[١].

يقول ابن جرير الطبري: «وهذا تعجيب من الله تعالى ذكره نبيه محمد ﷺ من الذي حاج إبراهيم في ربه؛ ولذلك أدخلت ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾، وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل في بعض ما أنكرت من فعله، قالوا: أما ترى إلى هذا؟ والمعنى: هل رأيت مثل هذا أو كهذا؟»[٢].

«وبلاغة القرآن في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام؛ لأن (التقرير) يحمل المخاطب على الإقرار، و(الاستفهام) يثير اهتمام الإنسان، فجمع بين الاستفهام والتقرير»[٣].

قوله: ﴿ٱلَّذِى﴾: قيل «هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمروذ بن كنعان بن كُوش بن سام بن نوح، ويقال: نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، والأول قول مجاهد وغيره»[٤]، «وعدم ذكر اسمه في الآية؛ لأن اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئا»[٥].

ومعنى ﴿حَآجَّ﴾: «خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة»[٦]، «والحجة: الدلالة المبينة للمحجة؛ أي: المقصد المستقيم، والذي يقتضي صحته أحد النقيضين»[٧]، «والمحاجة أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته»[٨]، «والأغلب أنه يفيد الخصام بباطل[٩]؛ قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ (سورة الأنعام: ٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤٧).

---

(١) «الدر المصون»، للسمين الحلبي، (٢/ ٥٠٥).
(٢) «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٦٧).
(٣) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨١).
(٤) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦). وانظر: «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩).
(٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب، م ١، (٣/ ٢٩٧).
(٦) «التحرير والتنوير»، لمحمد الطاهر بن عاشور، (٣/ ٣٢).
(٧) «المفردات في غريب القرآن»، للراغب الأصفهاني، (ص ١١٩).
(٨) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٩) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٢).

«وفي المحاجة وجهان محتملان:

أحدهما: أنه معارضة الحجة بمثلها.

والثاني: أنه الاعتراض على الحجة بما يبطلها»[١].

يقول أبو زهرة: «وفي تسمية كلامه حجة، إنما هو من قبيل المماثلة اللفظية، أو هو حجة في نظره السقيم الذي أفسد تفكيره، وأضله، فقد توهم وتخيل، ثم ظن فضل عن معرفة نفسه وعن معرفة الحق، ووقع في أمور لا يقبلها أي عقل سليم»[٢].

فمعنى ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: «أنه خاصمه خصامًا باطلًا في شأن صفات الله رب إبراهيم»[٣].

هذا وإن المتأمل في الآية يجد دقة اختيار لفظ ﴿حَآجَّ﴾ دون غيره ووضعها بهذا السياق القرآني أعطى صورة دقيقة لمجريات قصة إبراهيمﷺ والملك.

يقول ابن عطية: «لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد»[٤].

وقوله: ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾: «أي: في وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثَمَّ إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى﴾ (القصص: ٣٨)»[٥].

«والضمير المضاف إليه (رب) عائد إلى إبراهيم، والإضافة لتشريف المضاف إليه»[٦]، «وإيذان بتأييده في المحاجة»[٧]، «ويجوز عوده إلى الذي، والإضافة لإظهار غلطه»[٨]، «والظاهر الأول»[٩]، يقول أبو حيان: «وفي قول إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ تقوية لقول من قال: إن الضمير في قوله: ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾ عائد إلى إبراهيم»[١٠].

---

(١) «النكت والعيون»، للماوردي، (١/ ٣٢٩).
(٢) «زهرة التفاسير»، لمحمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٦). وانظر: «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨).
(٣) «التحرير والتنوير»، لمحمد الطاهر بن عاشور، (٣/ ٣٢).
(٤) «المحرر الوجيز»، لابن عطية، (١/ ٦٠).
(٥) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦).
(٦) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٢).
(٧) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١).
(٨) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٢).
(٩) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨).
(١٠) المرجع السابق، ص: ٢٩٩.

قوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: «الظاهر أن الضمير في ﴿ءَاتَىٰهُ﴾ عائد على الذي حاج، وهو قول الجمهور[1]، و﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ﴾ فيه وجهان: أظهرهما أنه مفعول من أجله على معنيين:

أحدهما: أن الحامل له على المحاجة هو إيتاؤه الملك، أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاج لذلك.

والثاني: أنه وضع المحاجة موضع ما وجب عليه من الشكر لله تعالى إيتائه الملك، كما تقول: عاداني فلان؛ لأني أحسنت إليه، تريد: أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ومنه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢)»[2].

«الوجه الثاني: أجاز الزمخشري[3] أن ﴿أَنْ﴾ وما في حيزها واقعة موقع ظرف الزمان، وتقديره عند الزمخشري: «ألم تر... حاج وقت أن آتاه الله»»[4][5].

هذا، ومن الهدايات التربوية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ «أن النعم قد تكون سببًا للطغيان؛ لأن هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق؛ إلا لأن الله آتاه الملك، ولهذا أحيانًا تكون الأمراض نعمة من الله على العبد، والفقر والمصائب تكون نعمة على العبد؛ لأن الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رغد، وفي عيش هنيء، فإنه ربما يطغى، وينسى الله عز وجل»[6].

(١) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨). وانظر: «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٦٧). «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦)، «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، لابن عطية، (٢/ ٣٦). «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، (٣/ ٢٨٥). «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨). «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١).

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٢٩٨).

(٣) انظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٣٥٠).

(٤) انظر: «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨). «الدر المصون»، للسمين الحلبي، (٢/ ٥٥١). «التفصيل في إعراب آيات التنزيل»، د. عبد اللطيف الخطيب، (٣/ ٢٨).

(٥) وتعقب الزمخشريَّ أبو حيان. انظر: تفصيل ذلك في تفسيره «البحر المحيط»، (٢/ ٢٩٨).

(٦) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨٥).

المطلب الثاني

القدرة على التصرف في الوجود لله تعالى وحده

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾. قوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

مناسبتها لما قبلها من الآية:

أنه «لما أخبر سبحانه وتعالى بمحاجته بين ما هو تقريرًا لآية: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٣)، دلالة على البعث ليوم لا ريب فيه ولا خلة ولا شفاعة، فقال: ﴿إِذْ﴾ أي حاجة حين ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ﴾ أي الذي أحسن إلي بخلقي وإدامة الهداية لي ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي وحده، وهذه العبارة تدل على تقدم كلام في هذا وادعاء أحدٍ لمشاركةٍ في هذه الصفة»[(١)].

فالظاهر «أن هذا من إبراهيم عن سؤال سبق من الكافر»[(٢)]، «وكأنه طلب من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه»[(٣)].

يقول الرازي: «الظاهر أن هذا جواب سؤال سابق غير مذكور؛ وذلك لأن من المعلوم أن الأنبياء – عليهم السلام – بعثوا للدعوة، والظاهر أنه متى ادعى الرسالة، فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلهًا؛ ألا ترى أن موسى – عليه السلام – لما قال: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٤) «قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؟ فاحتج موسى – عليه السلام – على إثبات الإلهية بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الشعراء: ٢٤)، فكذا هاهنا الظاهر أن إبراهيم ادعى الرسالة، فقال نمروذ: من ربك؟ فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، إلا أن تلك المقدمة حذفت؛ لأن الواقعة تدل عليها»[(٤)].

فقوله: «﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لـ ﴿حَآجَّ﴾[(٥)]، وقد دل على أن إبراهيم هو الذي بدأ بالدعوة

---

(١) «نظم الدرر، للبقاعي، (١/ ٥٠٤).

(٢) «البحر المحيط»، لأبي حيان»، (٢/ ٢٩٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦)، و«الكشاف»، للزمخشري (١/ ٣٥٠).

(٤) «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي، (٧/ ٢٣).

(٥) وأجاز الزمخشري أن يكون بدلًا من ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ﴾؛ إذ جعل بمعنى الوقت، وقد ذكرنا – أبو حيان–=

إلى التوحيد، واحتج بحجة واضحة يدركها كل عاقل، وهي أن الرب الحق هو الذي يحيي ويميت، فإن كل أحد يعلم بالضرورة أنه لا يستطيع إحياء ميت، فلذلك ابتدأ إبراهيم الحجة بدلالة عجز الناس عن إحياء الأموات، وأراد بأن الله يحيي أنه يخلق الأجسام الحية من الإنسان والحيوان، وهذا معلوم بالضرورة[١].

و«الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له»[٢].

وقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مبتدأ وخبر[٣][٤]، وفيه «دليل على الاختصاص؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا دل على الاختصاص، فتقول: زيد الذي يصنع كذا؛ أي: المختص بالصنع»[٥]. «وهنا المبتدأ أو الخبر كانا معرفتين، والمعنى: أنه سبحانه وحده هو الذي يحيي ويميت»[٦].

وفي تقديم الحياة على الموت في قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ «لأن المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هاهنا في الذكر»[٧].

= ضعف ذلك، وأيضًا فالظرفان مختلفان إذ وقت إيتاء الملك ليس وقت قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (انظر: تفصيل ذلك في: «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٨).

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦).

(٣) ﴿رَبِّيَ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء النفس، والياء: في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل رفع خبر. التفصيل في «إعراب آيات التنزيل»، تأليف: د. عبد اللطيف الخطيب وغيره، (٣/ ٢٩).

(٤) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٩).

(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٦) «تفسير حدائق الروح والريحان»، لمحمد أمين الهرري، (٤/ ٥٤) وانظر البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٢٩٩).

(٧) «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي، (٧/ ٢٤).

كما أن «في تقديم الاستدلال بخلق الحياة إدماج[١] لإثبات البعث؛ لأن الذي حاج إبراهيم كان من عبدة الأصنام، وهم ينكرون البعث، وذلك موضع العبرة من سياق الآية في القرآن على مسامع أهل الشرك، ثم أعقبه بدلالة الأمانة، فإنه لا يستطيع تنهية حياة الحي، ففي الإحياء والإماتة دلالة على أنهما من فعل فاعل غير البشر، فالله هو الذي يحيي ويميت، فالله هو الباقي دون غيره الذي لا حيلة لهم أصلًا كالأصنام، إذ لا يعطون الحياة غيرهم وهم فاقدوها، ودون من لا يدفع الموت على نفسه مثل هذا الذي حاج إبراهيم»[٢].

«كما أن التعبير بالمضارع ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يفيد معنى الاستمرار الذي يرى ويحس كل يوم»[٣]، «واختص إبراهيم من آيات الله بالإحياء والإماتة؛ لأنهما أبدع آيات الله وأشهرها وأدلها على تمكن القدرة»[٤].

يقول أبو حيان: «وفيه إشارة إلى أنه هو الذي أوجد الكافر، ويحييه ويميته، كأنه قال: ربي الذي يحيي ويميت هو متصرف فيك، وفي أشباهك بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك من هذين الوصفين العظيمين المشاهدين للعالم، اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء، ولا طب الأطباء، وفيه إشارة أيضًا إلى المبدأ والمعاد»[٥].

«هذا كلام إبراهيم، وهو يحوي حجة قوية واضحة، من شأنها أن تثير في النفس نزوع الاتجاه إلى الحق؛ لأنها تشير مع ذلك إلى حقيقة الحياة، وهي أنها إلى فناء، فلا يصح أن يغر الشخص بها الغرور، ولا يذهب به الطغيان إلى إنكار ربوبية الخالق»[٦].

– «ولما كان كأنه قيل: هذا أمر ظاهر مجمع عليه فماذا الذي يحاج الماج فيه؟ أجيب

(١) (الإدماج) في اللغة مصدر: أدمج الشيء في الشيء: إذا أدخله فيه.
وفي الاصطلاح: أن يضمن المتكلم كلامًا ساقه لمعنى آخر بشرط أن لا يصرح به، ولا يشعر في كلامه بأنه مسوق لأجله. «أنوار الربيع في أنواع البديع»، لابن معصوم، (٦/ ٢٧٩).
(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٣).
(٣) «زهرة التفاسير»، لمحمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٧).
(٤) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٩).
(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٦) «زهرة التفاسير»، لمحمد أبي زهرة، (٢/ ٩٥٧).

بقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ فكان قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾[1] استئناف بياني[2][3][4] لـ﴿حاج﴾، والتقدير: (حاج إبراهيم، قال أنا أحيي وأميت) حين قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[5].

ويقول أبو حيان: «لما ذكر إبراهيم أن ربه الذي يحيي ويميت، عارضه الكافر بأنه يحيي ويميت، ولم يقل: أنا الذي يحيي ويميت؛ لأنه كان يدل على الاختصاص، وكان الحسن يكذبه؛ إذ قد حيي ناس قبل وجوده وماتوا، وإنما أراد أن هذا الوصف الذي ادعيت فيه الاختصاص لربك، ليس كذلك، بل أنا مشاركه في ذلك[6].

«ومرمى قوله أنه إذا كان ربك يا إبراهيم يحيي ويميت واستحق الربوبية لذلك، فأنا أيضًا أحيي وأميت، فأستحق هذه الربوبية»[7].

يقول ابن جرير الطبري: «قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت، أستحيي من أريد قتله، فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياءً له، وذلك عند العرب يسمى إحياءً، كما قال الله: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ (المائدة: ٣٢)، وأقتل آخر، فيكون ذلك مني إماتة له»[8].

«لكن هذا المعاند المكابر قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ قالها إما تلبيسًا، وإما مكابرة، إما تلبيسًا

---

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي (١/ ٥٠٤).

(٢) انظر: «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٧).

(٣) قال أبو السعود: «استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: كيف حاجه في هذه المقولة القوية الحقة؟ فقيل: قال: أنا أحيي وأميت»، وقال الآلوسي: «واستشكل بعضهم على جميع ذلك موقع قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، إلا أن يجعل استئنافًا جواب سؤال، وجعله بمنزلة المرئي يأبى ذلك، ومن هنا قيل: إن الظرف متعلق بقوله سبحانه: ﴿قَالَ أَنَا۠﴾ ألخ، ويقدر السؤال قبل إذ قال، كأنه قيل: كيف حاج إبراهيم؟ فأجيب بما أجيب، ولا يخفى أن الإباء هو الإباء، فالأولى القول من أول الأمر بأن هذا القول: بيان لقوله سبحانه: ﴿حَآجَّ﴾. «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١)، وتفسير «روح المعاني» للألوسي، (٣/ ١٧).

(٤) الاستئناف البياني: هو «ما وقع جوابا لسؤال مقدر، بمعنى أنه يكون منفصلًا من حيث اللفظ لم يأت بواو ونحوها مما يربط الجملة بسابقتها، وإنما من حيث المعنى مرتبطة» شرح كتاب التوحيد، لأبي عبد الله أحمد بن عمر الحازمي، (٢١/ ١٣).

(٥) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٣).

(٦) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٢٩٩)، وانظر: «الدر المصون»، السمين الحلبي، (٢/ ٥٥٢).

(٧) «زهرة التفاسير»، لمحمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٨).

(٨) «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧٠).

كما قاله أكثر المفسرين»[١][٢].

«قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة»[٣].

وقيل: «أخذ أربعة نفر، فأدخلهم بيتًا، فلا يطعمون ولا يسقون، حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا، وتركت اثنين فماتا»[٤].

«والحقيقة أنه ما أحيا ولا أمات هذا، وإنما فعل ما يكون به الموت في دعوى الإماتة، واستبقى ما كان حيًّا في دعواه الإحياء، فلم يوجد حياة من عنده»[٥].

يقول الماوردي: «يريد أنه يحيي من وجب عليه القتل بالتخلية والاستبقاء، ويميت بأن يقتل من غير سبب يوجب القتل، فعارض اللفظ بمثله، وعدل عن اختلاف الفعلين في علتهما»[٦].

وقال بعضهم[٧]: «قال ذلك مكابرة؛ يعني: هو يعلم أنه لا يحيي ولا يميت، كأنه يقول لإبراهيم: إذا كان ربك يحيي ويميت فأنا أحيي وأميت»[٨].

يقول ابن كثير عند قوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾: «والظاهر – والله أعلم – أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ (القصص: ٣٨)»[٩].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠)، «الدر المصون» السمين الحلبي، (٢/ ٥٥٤)، «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦)، وانظر: «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧١– ٥٧٦).

(٤) «جامع البيان»، لان جرير الطبري، (٤/ ٥٧٥).

(٥) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨٠)

(٦) «النكت والعيون»، للماوردي، (١/ ٣٣).

(٧) انظر: «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦)، «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٨)، «تفسير التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٣).

(٨) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة (٣/ ٢٨٠).

(٩) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦).

نستنتج مما سبق: «أن الإنسان المجادِل قد يكابر فيدعي ما يعلم يقينًا أنه لا يملكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، ومعلوم أن هذا إنما قاله في مضايقة المحاجة، والإنسان في مضايقة المحاجة ربما يلتزم أشياء هو نفسه لو رجع إلى نفسه لعلم أنها غير صحيحة، لكن ضيق المناظرة أوجب له أن يقول هذا؛ إنكارًا أو إثباتًا»(١).

وقوله: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي: «قال إبراهيم له: فإن الله هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فأت بها – إن كنت صادقًا أنك إله – من مغربها»(٢).

واختلف المفسرون(٣)؛ هل ذلك انتقال من دليل إلى دليل؟ أو هو دليل واحد في الموضعين؟

إلى القول الأول: ذهب الزمخشري، فيقول: «وكان الاعتراض عتيدًا، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب؛ ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال من حجة إلى حجة»(٤).

قال أبو حيان: «معنى قول الزمخشري: وكان الاعتراض عتيدًا؛ أي: من إبراهيم لو أراد أن يعترض عليه بأن يقول له: أَحْيِ مَنْ أَمَتَّ، فكان يكون في ذلك نصرة الحجة الأولى»(٥).

أما القول الثاني: وهو أنه ليس انتقالًا من دليل إلى دليل، بل الدليل واحد في الموضعين، وهذا قول المحققين(٦)، وإليه أميل.

يقول ابن كثير: «قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس

(١) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨٣).
(٢) «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧٠).
(٣) انظر: «النكت والعيون»، للماوردي، (١/ ٣٣٠)، «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي»، (٢٥/٧)، «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٤) «الكشاف»، للزمخشري، (١/ ٣٠٦).
(٥) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٦) انظر: «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦). «تفسير البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠). «مفاتيح الغيب»، للفخر الرازي، (٧/ ٢٤).
«نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥٠٤). «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٨).

تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب»[١].

ثم يقول: «وهذا التنزيل على المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني»[٢].

«وإلزام المدعي يطرد حجته إن كانت صحيحة»[٣].

ويشير البقاعي إلى حسن احتجاج إبراهيم – عليه السلام –، فيقول: «ولما كان من حسن الاحتجاج ترك المراء بمتابعة الحجة الملبسة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾» (الكهف:٢٢)، نقل الحجاج من الحجة الواقعة في الأنفس إلى الحجة الواقعة في الآفاق بأعظم كوكبها الشمس؛ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣)، ففي ظاهر الاحتجاج انتقال، وفي طيه تقرير للأول[٤].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ «هذه الفاء جواب شرط مقدر، تقديره: قال إبراهيم إن زعمت أو مَوَّهت بذلك فإن الله، ولو كانت الجملة محكية بالقول لما دخلت هذه الفاء، بل كان تركيب الكلام: قال إبراهيم: إن الله يأتي»[٥][٦].

وقال الآلوسي: «والفاء الأولى للإيذان بتعلق ما بعدها بما قبلها، والمعنى: إذا ادعيت الإحياء والإماتة لله تعالى، وأخطأت أنت في الفهم أو غالطت، فمريح البال ومزيح الالتباس والإشكال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ﴾»[٧].

فالفاء «رابطة بين الكلامين إشعارًا لتتمة الحجة الأولى بالحجة الثانية»[٨].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (١/ ٦٨٦).
(٢) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها
(٣) «بدائع التفسير»، لابن القيم.
(٤) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥٠٤).
(٥) «الدر المصون»، للسمين الحلبي، (٢/ ٥٥٤).
(٦) ومثل هذا عند أبي حيان، فقد ذكر أن الفاء تدل على جملة محذوفة. انظر: «تفسير البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٧) «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٩).
(٨) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥٠٤).

ومن دلالة دقة المعنى أن كان التعبير بلفظ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، بدلًا من: (فإن ربي).

وفي ذلك يقول أبو حيان: «ولما كان إبراهيم في المقام الأول الذي سأله الكافر عن ربه حين ادَّعى الكافر الربوبية، قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فلما انتقل إلى دليل أو مثال أوضح وأقطع للخصم، عدل إلى الاسم الشائع عند العالم كلهم، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾، قرر بذلك بأن ربه الذي يحيي ويميت هو الذي أوجدك وغيرك أيها الكافر، ولم يقل: فإن ربي يأتي بالشمس ليبين أنه إله العالم كلهم هو ربه الذي يعبدونه؛ ولأن العالم يسلمون أنه لا يأتي بها من المشرق إلا إلههم»[1]، «والأمر للتعجيز»[2].

كما أن من دلالة دقة المعنى وتقويته مجيء الطباق في الأسلوب بين كلمتين (يحيي، ويميت)، وبين (المشرق، والمغرب)، «سلسًا طيعًا غير متكلف، يزيد في إيضاح المعنى وإظهاره وتقويته، وذلك عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهيأً للآخر ومستعدًّا له، فإذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه»[3].

هذا ومن اللطائف العلمية التي تستنتج مما سبق: «أن المحاجة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحق، من مقامات الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ...﴾.

كما أن في الآية إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة، والمحاجة؛ لأنها سُلم ووسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل»[4].

(١) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٢) «روح المعاني»، للآلوسي، (٣/ ١٩).
(٣) «دراسات منهجية في علم البديع»، الشحات أبو ستيت، ص: ٥٠ – ٥١.
(٤) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣/ ٢٨١).

المطلب الثالث

الانقطاع والعجز عن المحاجة

قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾

مناسبتها لما قبلها من الآية:

أنه لما كانت الحجة واضحة قوية ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ ناسب ذلك قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ بالفاء الرابطة بين الكلامين إشعاراً لحال النمروذ وصورته، قال الحرالي: فبهت «من البهت وهو بقاء الشيء على حاله وصورته لا يتغير عنها لأمر يبهره وقعُهُ؛ أي: فتسبب عن ذلك أنه بهت»[(١)].

وقد اختير لفظ ﴿فَبُهِتَ﴾ دون غيره؛ لأن فيه غزارة في المعنى، فمعنى ﴿فَبُهِتَ﴾: «انقطع وبطلت حجته»[(٢)]، و«دهش وتحير»[(٣)].

وبهت «مبنيٌّ لما لم يسم فاعله– فعل مبني للمجهول–، والفاعل المحذوف (إبراهيم)؛ إذ هو المناظر له، فلما أتى بالحجة الدامغة بهته بذلك وحيره وغلبه، ويحتمل أن يكون الفاعل المحذوف المصدر المفهوم من قال؛ أي: فحيره قول إبراهيم وبهته»[(٤)].

والمعنى: «تحير، فلم يرجع إليه جوابًا، وانقطعت حجته، وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور»[(٥)]، فدل على «أن الحق لا تمكن المجادلة فيه»[(٦)].

قوله: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: «أي حصل له الكفر بتلك الدعوى التي لزمه بها إنكاره لاختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على ذلك وإدعاؤه لنفسه الشركة، فبين له الخليل بهذا المثال أنه عاجز عن تحويل صورة صورها الله سبحانه وتعالى ووضعها في جهة إلى غير ذلك الجهة فكيف له

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي (١/ ٥٠٤).
(٢) «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧١).
(٣) «المفردات في غريب القرآن»، للراغب الأصفهاني، (ص ٧٠).
(٤) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠٠).
(٥) «تيسير الكريم الرحمن للسعدي، (١/ ١١١).
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة البقرة (٣/ ٢٨٥).

بأن يوجد صورة من العدم»[1].

وكان الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ لأجل أن نقول: كل من جادل هذا الرجل فهو كافر، ففيها إثبات أن من جحد الله فهو كافر»[2].

«والتعبير بالموصول مع صلته يشعر بالعلة، وأن سبب الحيرة هو كفره، ولو قال: (فبهت الكافر) لما أفاد المعنى الدقيق»[3].

يقول أبو السعود: «وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفر»[4].

هذا، ومن اللطائف التربوية التي تستنتج من ذلك:

«أنه مع ظهور الحق ظهورًا بينًا «لا سبيل إلى سوء فهم، أو الجدال والمراء، وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر»[5]؛ ليظل على كفره، كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي ختام هذه القصة جاء التعقيب مناسبًا لما بنيت عليه القصة، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. «تذييل مقرر لمضمون ما قبله»[6]. أي: «والله لا يهدي أهل الكفر به إلى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة؛ لأن أهل الباطل حججهم داحضة»[7]، «بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك»[8]، «بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة[9]،

ومعنى الظلم: «وضع الشيء في غير موضوعه، والكافر وضع جحوده ما جحد في غير

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي (١/ ٥٠٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة البقرة (٣/ ٢٨٥).
(٣) «تفسير الروح والريحان»، لمحمد الأمين بن عبد الله الهرري، (٤/ ٥٤).
(٤) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥٢).
(٥) انظر: «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، (١/ ٢٩٨).
(٦) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥٢).
(٧) «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، (٤/ ٥٧٦، ٥٧٧)، وانظر: «النكت والعيون»، للماوردي، (١/ ٣٣٠).
(٨) «تيسير الكريم الرحمن»، للسعدي، (١/ ١١١).
(٩) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٥٢).

موضعه، فهو بذلك من فعله ظالم لنفسه»[١].

يقول ابن عاشور: «وإنما انتفى هدى الله القوم الظالمين؛ لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره»[٢].

ويقول أبو حيان: «وخُصَّ الظالمون بمن يوافي ظالمًا؛ أي: كافرًا، أن يقع هداية من الله، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ (الزمر: ١٩)»[٣]، «وقصر فعل الهداية لإفادة العموم»[٤] وهو من اللطائف القرآنية.

هذا، ومن دلالة دقة المعنى أن كان «توكيد الخبر بإسمية الجملة والنفي»[٥]، «وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة»[٦].

وهكذا نجد أن ختام الآية مناسب لصدر ومضمون الآية، يقول أبو حيان مبينًا ذلك: «ومناسبة هذه الآية بهذا الإخبار ظاهرة؛ لأنه ذكر حال مدع شركة الله في الإحياء والإماتة، مموهًا بما فعله أنه إحياء وإماتة، ولا أحد أظلم ممن يدعي ذلك، فأخبر الله تعالى أن من كان بهذه الصفة من الظلم لا يهديه الله إلى اتباع الحق، ومثل هذا محتوم له عدم الهداية، مختوم له بالكفر؛ لأن مثل هذه الدعوى ليست مما يلتبس على مدعيها، بل ذلك من باب الزندقة والفلسفة والسفسطة، فمدعيها إنما هو مكابر مخالف للعقل»[٧].

هذا، ومن الهدايات التربوية في هذا الموضع: «أنه كلما كان الإنسان أظلم، كان عن الهداية أبعد؛ لأن الله عز وجل علق نفي الهداية بالظلم، وتعليق الحكم بالظلم يدل على علِّيته، وكلما قويت العِلة قوي الحكم المعلق عليها»[٨].

وكذلك «إن الله لا يمنع فضله عن أحد إلا إذا كان هذا الممنوع هو السبب؛ لقوله تعالى:

---

(١) «جامع البيان»، لابن جرير، (٤/ ٥٧٧).
(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣/ ٣٤).
(٣) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠١).
(٤) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، للبقاعي، (١/ ٥٠٥).
(٥) «دليل البلاغة القرآنية»، د. محمد بن سعد الدبل، (ص ٣٤٥).
(٦) انظر المرجع السابق، الصفحة نفسها، و«إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١/ ٢٤٠).
(٧) «البحر المحيط»، لأبي حيان، (٢/ ٣٠١).
(٨) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، (٣/ ٢٨٥).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلظلمهم لم يهدهم الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ (الصف: ٥)»[١].

وهكذا جاءت هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه، فهي كما نلحظ امتازت بالتركيز والتكثيف البلاغي، ودقة الوصول إلى المعنى عبر القول الموجز والإشارة الدالة التي تشيع بالإيحاءات المصورة التي أسهمت في تجسيم المعاني، وجعلت هذه القصة حية تنبض بالحياة والحركة.

يقول ابن القيم: «فإن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة»[٢].

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فمن أهم النتائج التي توصلت إليها ما يأتي:

١- آية قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك «نمروذ» جاءت في سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم، ومع ذلك حيكت كبقية آيات السورة «بنسيج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام» يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر.

٢- المحاجة التي وقعت بين إبراهيم – عليه السلام – والملك «نمروذ» مناسب لمحور سورة البقرة الذي يدور حول «منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه» قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣- آية قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك «نمروذ» بلغت ذروة الإعجاز، على قصر إيجازها وشدته ومع ذلك أصابت جوهر المعنى عبر كلام موجز، وإشارة دالة يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر، فجمعت القصة بين فصاحة نظم ألفاظها وحسن ترتيبها بين الآيات.

(١) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، (٣/ ٢٨٥).
(٢) «الصواعق المرسلة»، لابن قيم الجوزية، (٢/ ٤٩٠).

٤- «بلاغة القرآن في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام؛ لأن التقرير يحمل المخاطب على الإقرار، و(الاستفهام) يثير اهتمام الإنسان، فجمع بين الاستفهام والتقرير[١]، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾.

٥- بيان دور الفاصلة القرآنية في قصة إبراهيم – عليه السلام – والملك، حيث حملت في طياتها أهدافًا دلالية مطردة ومتلازمة مع الهدف الجمالي للإيحاء ودلالة الوفاء بالغرض المطلوب.

٦- أهمية علم التناسب في إظهار الوحدة الموضوعية للقصة القرآنية، وبيان وجه مناسبتها للآيات التي قبلها وبعدها في السورة، إضافة إلى بيان أوجه المناسبة بين بداية القصة وخاتمتها؛ مما يعكس وجهاً من وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم.

٧- بلاغة الألفاظ القرآنية على تجسيم المعاني وبراعتها في العرض والأداء؛ مما أكسبها قدرة على التأثير والإقناع في نفوس المتلقين.

٨- إن النص القرآني في إعجازه بنظمه لا يمكن تناوله بمعزل عن سياقه الداخلي، ولا يبتعد عن سياقه الخارجي المقام في إظهار ربط السابق باللاحق من الآيات ضمن علم شريف هو علم التناسب وصولًا للغايات والمضامين القرآنية.

٩- علم التناسب تأكيد لإعجاز القرآن في نظم آيه وكلمه، ودحض شبهة افتراق القرآن، المكي والمدني، ورد قاطع على كل من يشكك في ترابط القرآن الكريم من المستشرقين وغيرهم.

١٠- علم التناسب له أهمية كبيرة في فهم إشارة النص وتذوق أساليب وبلاغة اللغة العربية، واستخراج اللطائف الدقيقة، والفوائد الخفية عن كثير من الناس، فتتوسع دائرة التدبر في القرآن الكريم.

وختامًا:

أوجه النظر إلى أهمية تكثيف دراسة التناسب القرآني لإبراز جماليات النظم في آيات وألفاظ القرآن الكريم، ففي ذلك بيان غزير، وسيبقى القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ودرره.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(١) «تفسير القرآن العظيم»، لابن عثيمين، سورة البقرة، (٣ / ٢٨١).

المصادر والمراجع

١. «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، لمحمد الأمين المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د. ت.

٢. «الأساس في التفسير»، لسعيد حوّى، دار السلام، القاهرة، ط: ٦، ١٤١٤ هـ.

٣. «البرهان في علوم القرآن»، لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط: ٤، ١٩٩٤ م.

٤. تأملات في جماليات النص القرآني، لأحمد درويش، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠١٠م.

٥. «التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن جزي الكلبي، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥ م.

٦. «التفصيل في إعراب آيات التنزيل»، د. عبد اللطيف الخطيب، مكتبة الخطيب، الكويت، ٢٠١٥ م.

٧. «التناسب القرآني عند الإمام البقاعي»، مشهور موسى مشهور، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١م.

٨. «الجامع لأحكام القرآن»، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وضبطه: د. محمد إبراهيم الحفناوي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ م.

٩. «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

١٠. «القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث»، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ١٤١٩هـ، ١٩٨٨م.

١١. «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق وتعليق: الرحالة الفاروق، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دولة قطر، ط: ٢، ٢٠٠٧ م.

١٢. «المعجزة الكبرى»، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

١٣. «المفردات في غريب القرآن»، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠١٢ م.

١٤. «أنوار الربيع في أنواع البديع»، لصدر الدين المدني علي بن أحمد بن محمد معصوم،

الشهير بابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي، ١٣٨٨ هـ.
١٥. «بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية»، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٧ هـ.
١٦. «تفسير البحر المحيط»، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م.
١٧. «تفسير التحرير والتنوير»، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
١٨. «تفسير القرآن العظيم»، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٧ م.
١٩. «تفسير القرآن العظيم»، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض، ٢٠٠٤م.
٢٠. «تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ٣، ١٤٠٧هـ.
٢١. «تفسير النكت والعيون»، لأبي الحسن علي الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
٢٢. «تفسير حدائق الروح والريحان في رواية علوم القرآن»، لمحمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، د. ت.
٢٣. «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، للإمام محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض، ٢٠٠١ م.
٢٤. «دراسات منهجية في علم البديع»، الشحات أبو ستيت، دار خفاجي، القاهرة ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢٥. «دليل البلاغة القرآنية»، د. محمد بن سعد الدبل، الرياض، ط: ٢، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠م.
٢٦. «روح البيان»، لإسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، د. ت.
٢٧. «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، لأبي الفضل شهاب الدين الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٤، ١٩٨٥م.
٢٨. «زاد المسير في علم التفسير»، للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتاب

العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٩. «زهرة التفاسير»، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
٣٠. «الزيادة والإحسان في علوم القرآن»، لابن عقيلة المكي، مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة، ٢٠٠٦م.
٣١. «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير»، لمحمد بن علي الشوكاني، حققه: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٤م.
٣٢. «في ظلال القرآن»، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: ١٧، ١٤١٢هـ.
٣٣. «لسان العرب»، لابن منظور، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، د. ت.
٣٤. «مباحث في التفسير الموضوعي»، د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م.
٣٥. «مباحث في علوم القرآن»، لمناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٣٦. «مجلة البحوث والدراسات الإسلامية»، بحث بعنوان: (التناسب القرآن)، لأمير طلال النعيمي، العدد ٣٢.
٣٧. «مجلة البيان»، بحث بعنوان: (علم المناسبات)، لمحمد الخضيري، العدد ١٤٦.
٣٨. «مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية»، بحث بعنوان: (المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم)، للدكتور: عبد الله الخطيب، ومصطفى مسلم، مجلد ٢، عدد ٢، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
٣٩. «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع»، لجلال الدين السيوطي، مكتبة دار المنهاج للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.
٤٠. «معالم التنزيل»، للإمام أبي محمد الحسين الفراء البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
٤١. «معاني القرآن وإعرابه»، لإبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.
٤٢. «معجم مقاييس اللغة»، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
٤٣. «مفاتيح الغيب»، للإمام محمد الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٣، ١٤٢٠هـ.

٤٤. «مقالات الأدباء ومناظرات النجباء»، علي بن هذيل، تحقيق: عبد الرحمن الهليل، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤٥. «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، لإبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢ م.
٤٦. تفسير «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، لعبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
٤٧. درء تعارض العقل والنقل، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ.
٤٨. الصواعق المرسلة، لمحمد بن أبي بكر بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٨هـ.
٤٩. المختصر في التفسير، إشراف مركز تفسير للدراسات القرآنية، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ٢٠١٥م.
٥٠. النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، دار القلم، دمشق.